بيئة الأدب الجاهلي
الناحية الاقتصادية

عبد الحميد حادوش www.hamidpress.canalblog.com

الأستاذ عبد الحميد حادوش

بيئة الأدب الجاهلي

الناحية الاقتصادية

تقديم

لقد حاولت اعتمادا على عدد من المصادر ، منها :

- في لجاهلية وصدر الإسلام — لبطرس البستاني
- مقدمة القصيدة العربية — لحسن عطوان
- دراسات في تاريخ الدولة العربية — لعبد العزيز سالم
- العصر الجاهلي — لشوقي ضيف
- شرح المعلقات — للزوزني

أن أقوم بعملية مزدوجة لتلافي الخلط من جهة ، والسقوط في سرد الأحداث باستطراد من جهة أخرى ، فتوخيت الاختصار اعتمادا على ملء خريطة شبه الجزيرة العربية بالمراكز الاقتصادية الهامة ، وما بها من عمد اقتصادي ، زراعة ، وصناعة ، وتجارة داخلية وخارجية . و في لجانب الآخر حررت عرضا موجزا اعتمدت فيه الخطوط العريضة للمناطق المذكورة رسما على الخريطة ، مع بعض التوضيحات ، والاستشهادات من آراء المؤرخين ، والرواة ، والأشعار كسند وحجة .

إشكالية تحديد العصر الجاهلي

1- فإذا كان الأدباء في بحثهم للأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن ، ويأخذونه برأي الجاحظ " يكون الشعر العربي الجاهلي صغير السن ، يبتدأ من امرىء القيس ، فإن التحديد الزمني لا يتغلغل في أكثر من مائتي عام ، وعند البعض قرنا ونصف من البعثة النبوية " فإن داسة الوضعية الاقتصادية لهذا الأدب " الشعري " فيه إجحاف إذا اقتصرنا على هذا التحديد ، باعتبار أن الواقع الاقتصادي لمرحلة تاريخية معينة تحمل في طياتها مخلفات ومهارات ، وجذور المراحل السابقة . وهذه الإشكالية طرحت نوعا من التداخل والخلط ، ولا زالت في الدراسات .

2- الاشكالية الثانية التي تعترض الناحية الاقتصادية الجاهلية – كما اعترضت الشعر– هي التساؤل التالي :

هل نقتصر على ما وصلنا من الأشعار وأخبار العرب فقط ، وهذا فيه شيء من الغموض التاريخي ؟ أم نوسع ذلك إلى ما أوردته كتب اليونان ، وأخبار البزنطيين ، والفارسيين ... وما توصّل إليه علماء الآثار ؟

3- الإشكالية الثالثة التي تعترضنا أيضا هي : هل نأخذ التراث الشعري الجاهلي الذي وصلنا لدراسته واستقرائه ، والوقوف من خلاله على الحياة الاقتصادية بالرغم من قلته ، وصغر سنه ؟ أم نأخذ علم التاريخ الاقتصادي أصلا عمليا ، وربطه بالشعر كفرع ومصدر له للوقوف على العلاقة الموجودة ، والوقوف على ما كان ؟ هذه أسئلة مطروحة تستوجب التمحيص . وفي رأيي ، لن يكون الأدب (والشعر خاصة) متمما للعلاقات ، ولا انعكاسا لواقع فحسب ، بل يسمو بكل هذا إلى إبداع للتأريخ ، وتحديد الانتماء بكل أنواعه .

أقسام الجزيرة العربية

يقسم العرب مدائنها إلى خمسة :

1- تهامة : تقع بين مكة وصنعاء .

2- نجد : حددوها من بادية السماوة إلى الدهناء في الجنوب ، أي : من أطراف العراق شرقا إلى الحجاز غربا . فما ولى العراق سمي نجد السافلة ، وما ولى الحجاز وتهامة سمي نجد العالية .

عبد الحميد حادوش www.hamidnes.canalblog.com

3- الحجاز : فمدنه تحدده ، ومنها : المدينة والطائف وخيبر وفدك والجار وتيماء .

4- العروض: وتشمل اليمامة والبحرين وما والاهما . (ياقوت الحموي) . فاليمامة سميت قدما جوّا عندما نزلتها طسم وجديس ، وهما من القبائل العربية البائدة . وسميت باليمامة نسبة إلى بنت سهم بن طسم ، فكانت قاعدتها في القديم مدينة حجر . أما البحرين فقاعدتها هجر ، وقصبة هجر (الإحساء) .

5- اليمن: تقع جنوب الجزيرة ، ولم تستقر حدودها تاريخيا .قيل : سميت بهذا الاسم لأنها أيمن العرب ، والأرجح هي يمنات الواردة في نص يرجع إلى أيام الملك شمر يهرعش ، ويمنات من الخير . وإليها أشار القرآن الكريم في سورة سبأ .

ويزيد المؤرخ ابن حوقل :

6- بادية العراق .

7- بادية الجزيرة بين دجلة والفرات .

8- بادية الشام .

الحجاز

الطائف

الزراعة :

الطائف من مدن الحجاز ، كان يقوم أهلها على الزراعة لوفرة المياه ، فينتجون الحنطة والشعير ، ومن الفواكه العنب والتمر ، وكانت لها شهرة كبيرة ، حيث قال ابن قتيبة نقلا عن ياقوت الحموي : " أما العنب فعليه كانت تعتمد ثروتها الزراعية لوفرة نتاجه ، وكانوا لكثرته يجففونه ، ثم يصدّرونه إلى مكة لمزجه بمياه آبارها ." كما كانت مصيف أهل مكة وتجارها لخفة الحرّ بها .

الحرف :

عرفت منذ القدم بالصيد إلى جانب تربية النحل ، وحرفة النجارة .

مركز ديني :

فالطائف مركز ديني ثاني بعد مكة ، كان لأهلها بيت يسترونه بالثياب ، ويهدون له الهدي ، ويطوفون حوله ، سمي الرّبّة . وهذا البيت به صخرة مربعة تعرف باللات .

يثرب

الزراعة :

اشتهرت يثرب بخصوبة الأرض لوقوعها بين حرتين ، حرّة واقم بالشرق ، وحرة الويرة في الغرب .وتمتاز بكثرة المياه لوجود أودية ، ومنها : – وادي بطحان – وادي رانون – وادي مذينيب – وادي قناة – وادي مهزور . فكان إنتاجهم الزراعي الشعير ، والعنب ، والرمان ، والتمر . ولقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان نوعا من التمر يقال له " الصبحان يفوق تمور غيرها " . أما طعام الأغلبية من الناس كان التمر والشعير ، أما الموسر فكان يشتري لنفسه ، أو يزرع القمح وبعض الفواكه .

الصناعة :

كان " ليثرب " صناعة تعتمد على الإنتاج الزراعي ، ومنها : صناعة الخمور من التمر ، والقفف من سعف النخيل ، والنجارة من شجر الطرفاء والأثل ، إلى جانب صناعة الحلي ، وأدوات الزينة ، والأسلحة ، والدروع التي احترفها اليهود في الغالب .

التجارة الداخلية :

www.hamidpress.canalblog.com عبد الحميد حادوش

نشطت هذه بشكل هام ، فأسواقها في الجاهلية كانت تروّج فيها سلع محلية : النمور والشعير والحطب والصوف والسلاح وأدوات الزينة . ومن الأسواق المعروفة منذ الجاهلية :

- سوق بني قينقاع
- سوق زبالة
- سوق الجسر
- سوق الصفاصف
- سوق البطحاء

وفيها كان بنو سليم يبيعون الخيل ، والإبل ، والغنم ، والسمن ، ويجلبون إلى جانب ذلك زبيب الطائف ، ومنسوجات اليمن ، وحنطة الشام .

مكة

قامت في واد غير ذي زرع ، انعدمت بها الزراعة إلا ما يخرج من بعض النباتات التي تسمن المواشي .

الصناعة

قامت بمكة عدة صناعات وحرف ، منها :

صناعة الأسلحة (رماح – سكاكين – سيوف – دروع – نبال ...) . فسعد بن أبي وقاص كان يبري النبال ، والوليد بن المغيرة كان حدادا ، وخباب بن الأرث كان قنا يعما السيوف . وإلى جانب ذلك صناعة القدور ، والجفان ، والصحاف الخزفية ، ومن أولائك أمية بن خلف .كما عرفت مكة صناعة الأسرة والأرائك المصنوعة من الخشب (عبيدة بن أبي وقاص) .

التجارة

أما التجارة فكانت العمود الفقري حيث كان يعتمد أهلها على البيع والشراء والضرائب التي تجني على القوافل التجارية ، وما كان يتفقه الحجاج في مواسم الحج . فمنذ القرن السادس احتكرت مكة تجارة الهند بفضل زعيمها هاشم بن عبد مناف ، وهو أول من سنّ رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ، ورحلة الصيف إلى الشام .

فمطرود بن كعب الخز اعي قال :

يا أيها الرجل لمحول رحله * هلا نزلت بعبد مناف

الآخذون العهد من آفاقها * والراحلون لرحلة الإيلاف

ويذكر اليعقوبي : "أن تجارة مكة كانت لا تتعدى مكة ، فكان القرشيون يعانون الضيق إلى أن حلّ هاشم إلى بلاد الشام ، ونجح في عقد معاهدة تجارية (إيلاف قريش) مع حكومة بيزنطية ."

وكانت المعاملات التجارية بين العرب والبزنطيين تتم على الحدود السورية ، ولم تسمح بيزنطا لسفن العرب الإقامة إلا في مدن ثلاثة ثابتة : بصرى – غزة – القدس . وترددت بصرى في كثير من أشعار العرب في الجاهلية ، وهي المحطة الأخيرة لقوافل قريش ، والسوق الرئيسية للغلال بالنسبة للحجاز . ومن المعاهدات التجارية ، والمعروفة تاريخيا :

1- عقد هاشم بن عبد مناف ، وهي معاهدات مع أمراء الجزيرة العربية وملوك غسان والحيرة .
2- عقد معاهدة عبد شمس بن عبد مناف مع نحاسي الحبشة إلا عميدا .
3- معاهدة المطلب بن عبد مناف مع ملوك العراق .

فكانت هذه المعاهدات تسجل على الأديم أو في صحف . ومما ساعد قريش على احتكار تجارة الهند ، والحبشة ، واليمن ، والعراق الحروب المتواصلة بين بيزنطة وفارس ، والتي كانت تسبب في غلق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية .

عبد الحميد حاروش www.hamidpresscanablog.com

ومن السلع التي كانوا يستوردونها العاج الإفريقي ، والذهب الإثيوبي ، وتوابل الهند ، وحرير الصين ، وآلئ فارس ، إلى جانب المنسوجات ، والجلود ، والعطور من اليمن .

ومن أثرياء مكة : أبو أحبجة – عبد الله بن جعدان – الوليد بن المغيرة المخزومي – وأبو سفيان ...الخ. فلقد وردت في القرآن الكريم آية في حق الوليد بن المغيرة ، وعمرو بن عمير الثقفي عظمي القرشيين (مكة والطائف) ، لقوله تعالى : ((وقالوا لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .)) . وأورد ابن هشام في السيرة سبب النزول .

وبصفة عامة ، فإن الحجاز كان يشقها شريان رئيسي من شريان التجارة العالمية تتفرع منه شرايين تتجه نحو الشرق ، والشمال الشرقي ، وشريان آخر له خطره هو طريق البحر الأحمر (القلزوم) المؤدي إلى الهند . فالحجاز جسر يربط الشام بحوض البحر الأبيض المتوسط ، والصومال ، والسواحل المطلة على المحيط الهندي ، فكان لذلك أثر في ظهور مرفأ تجاري هو ثغر الشعيبة ، جدة حاليا ، وثغر ينبع مرفأ يثرب .

كما نتج عن اشتغال أهل الحجاز بالتجارة ظهور أسواق مشهورة تقام في الشهر الحرم ، فكانت تضرب فيها الخيام ، فتجمع بين التجارة ، وقرض الشعر ، والتداوي ، ومنها :

- سوق عكاظ بين مكة والطائف .
- سوق مجنة أسفل مكة .
- سوق حباشة قرب بارق .
- سوق ذي المجاز قرب عرفة .

ذكر هذا الأزرقي في كتابه أخبار مكة .

ومن الكوارث الطبيعية لمكة ، وأخطرها تعرضها للسيول التي تأتي في فصل الخريف ، وأقدمها سيل قام في زمن الحرهميين ، حيث هدم البيت ، فأعادوا بناءة ، فتكرر ذلك عدة مرات إلى عهد بني أمية .

اليمن :

تعاقب على هذه المنطقة السبئيون ، والمعينيون ، والحميريون إلى أن دخلها الاسلام . وذكرها الله في القرآن بقوله : ((لقد كان لسبأ في مسكنكم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور .)) (سورة النحل) .

وعرفت عند اليونان بلاد العرب السعيدة ARABIA FELIX لكثرة خيراتها ومحصولاتها الزراعية . وقد ذك ابن الفقيه الهمذاني : "إنه كان يَحْصَب العلو ثمانون سدّا ."

وذكرها تُبَّع بقوله :

وبالربوة الخضراء من أرض يَحْصَب * ثمانون سدّاً تقلس الماء سائلا

وسميت عند المؤرخين باليمن الخضراء ، فتغنى الكلاعي بها قائلا :

هي الخضراء فاسأل في رباها * يخبرك اليقين المخبرونا

ويمطرها المهيمن في زمان * به كل البرية يظمئونا

وفي أجيالها عزّ عزيز * يظل له الورى متقاصرينا

وعرفت اليمن قديما بتجارة العطور ، والبخور ، والطيوب ، والمر ، والصّمغ ، والكافور ، والورس (الأصمغي) .

الزراعة :

www.hamidpress.canalblog.com عبد الحميد حامد

قامت على السدود ، ومنها سد مأرب الذي أقامه المكرب السبئي سنة **650** قبل الميلاد ، ويعرف بسدّ رجب كذلك الذي أقيم على وادي ذنة ، وغيرها من السدود ، وهذا الأخير تصدّع في آخر الدولة الحميرية نتيجة الإهمال سنة **300** م . وقامت على هذه السدود زراعة متنوعة من الخضراوات والفواكه ، ويذكر تيوفراست تلميذ أرسطو في كتابه (تاريخ النبات) أنواع الطيب ، وكيفية زراعتها في بلاد العرب . كما يذكر تيودور الصقلي بلاد سبأ بقوله : " تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي ، وتنمو على طول الساحل أشجار البلسم والقرفة ..." وأكد نلنيوس هذه المميزات التي خصت بها بلاد اليمن ، واعتبر السبئيين أشهر قبائل العرب في إنتاج اللبان والبخور . (فيليب حتّي) .

ويقول الأصمعي : " أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ، ولا تكون إلا في اليمن ، الورس ، والكندر ، والخطر ، والعصب."

- الورس : نوع من النبات يستعمل في الصباغة .
- الكندر : نوع من البخور .
- الخطر : لبن سائل .
- العصب : نوع من النسيج .

التجارة :

هذه المفتوحات انت تصدّر إلى مصر الفرعونية ، فكان المصريون يستعملون البخور في المعابد ، وتحنيط جثث الموتى ، ويصدرونها أيضا إلى بلاد الهند ، والعراق ، والشام ، فيستوردون لآلئ الخليج الفارسي ، ومن الهند التوابل ، والسيوف .، ومن الصين الحرير ، ومن إثيوبيا (بلاد افريقية) العاج والذهب .

فإلى جانب شهرة اليمن وحضرموت بالطيوب ، اشتهرت أيضا بمعدن الذهب ، ولا أدلّ على ذلك إلا ما قاله سيف بن ذي يزن لكسر عند ما طلب منه مساعدة لطرد الأحباش ، فنشر دراهمه على الخدم ، خدم القصر ، قال : ما أصنع بالمال وتراب أرضي ذهبا وفضة ." وذكر الألوسي : " أن معدن عشم ، ومعدن صنكان باليمن هما معدنا ذهب جليلان ." (عشم وضنكان من مخلاف إقليم تهامة . وأشار بن رستة في كتابه (الاعلاق النفسية) " إن وفرة الذهب في مأرب " . وذكر الرصاص والفضة والحديد . والرصاص بين فهم وخولان ، والحديد بعدن .

- وذكر ابن حوقل : إن الأحجار الكريمة في جبل بشام ، وفي مخلاف صنعاء .
- ابن حوقل أيضا : " يستخرج الشيب اليماني الأبيض أو ما يسمى حجر الجمست .
- وذكر المقدسي : " أن العنبر يكثر في سواحل عدن وما يليها " .

الصناعة :

- صناعة الجلود في ك نجران – صنعاء – جرش – صعدة – وزبيد . (المقدسي) .
- صناعة المنسوجات : صنعاء وعدن .
- صناعة الأسلحة : السيوف اليمنية والرماح .
- صناعة الأواني الخزفية : وجود آثار .
- صناعة الحلي : يلخص المقدسي خيرات اليمن بقوله : " اليمن معدن العصائب والعقيق ، والأدم ، والرقيق ، فإلى عمان يخرج بلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران ، والبقم ، والساج ، والساسم ، والعاج ، واللؤلؤ ، والديباج ، والجزع ، واليواقيت ، والبنوس ، والنارجيل ، والقند ، والأسكندروس ، والبلور ، والفلفل ، ويزيد عدن بها العنبر ، والشروب ، والدرق ، والجسّ ، والخدم ، وجلود النمر ، وما لو استقصيناه طال الكتاب ."

التجارة :

www.hamidpressanalblog.com عبد الحميد حادوش

فرغم تعاقب السبئيين والمعينيين والحميريين على بلاد اليمن من 650 قبل الميلاد إلى 525 م . ورغم فترات السطو والمحاولات اليائسة من الرومان ، والفرس إلى سيطرة الأحباس ، فإن الصراع كله كان أساسه اقتصاديا للسيطرة على الطرق التجارية البحرية ، والخيرات الداخلية . ورغم هذا فقد عاشت اليمن عصور ازدهار ، وتم لها بهذا السيطرة على الطرق التجارية البرية الموصلة بين اليمن والشام ومصر ، ورافق القوافل أدلاء وجنود ، وفي كل موطن وجدت بها جالية تجارية يمنية إلا ووجدت معها حامية عسكرية ، فتم لهم بذلك الاحتكاك بآشور سبورية ، وفنيقية ، ومصر ، فاقتبسوا منهم الفنون خاصة معرفة تدوين الحسابات التجارية ، والكتابة ، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية ، ودونوا لغتهم . فاليمن في الجاهلية اكثر بلاد العرب تحضرا ، حيث كثرت بها الحصون والقصور .

- القصور : القصر يعرف بالمحفد ، ومنها : غمذان – تلفم – ناعط – سلحين – مأرب ...الخ .

وإذا تجمعت عدة قصور في منطقة تسمى حلاف ، ويتولى شؤون الحلاف أمير يقال له قيل جمع أفيال . وقد أحصى اليعقوبي هذه المخاليف فوجد أنها أربعة وثماثون مخلافا .

- وأشهر قصور اليمن غمذان ، وسلحين ، ويبنون ، وفي هذا قال الشاعر :

هل بعد غمذان وسلحين من اثر * وبعد يبنون يبني الناس بنيانا

ويقول الشاعر ذو جدن الهمذاني :

وغمذان الذي حدثت عنه * بناه مسيّدا في رأس نيق

بمرمرة وأعلاه رخام * تحام لا يعيب بالشقوق

مصابيح السليط يلحن فيه * إذا يمشي كترماض البروق

فاضحى بعد جدّته رمادا * وغيّره حسنه لهب الحريق

هذا القصر أحرق في عهد النبي (ص) على يد فروة بن مسيك ، وهدم أيام حركة الردة ، ذكر ذلك الهمذاني في كتابه الإكليل . ولقد شاهد المسعودي آثاره سنة 332 هـ ، ولا زالت الآثار لقصر سلحين والقشب .

الخلاصة

إن عرب الجنوب سيطروا على الطرق التجارية رغم النكسات السياسية والحروب . كانوا وسطاء بين الهند وبلاد العراق ، والشام ومصر، والحبشة ، فنتج عن ذلك الثراء الفاحش ، والمنشآت العظيمة ، وتكاثرت الأطماع وتوالت ، فاشتد الصراع على الرئاسة في الداخل ، والمواجهة الخارجية . كانت حضارة شهد لها التاريخ ، وحفظ الشعر لها ، كما أبانت الآثار عنها .

الغساسنة

من أزد اليمن ، نزحوا تحت قيادة زعيمهم عمر بن عامر من جنوب الجزيرة على بادية الشام قبل وبعد تصدّع سد العرم = مارب .ويسمون آل جفنة وأولاد جفنة . أول ملوكهم جفنة بن عمرو مرتقياء ، وآخرهم جبلة بن الأهيم الذي أسلم وارتدّ . ففي مشارق الشام كانت تسكن الضجاعمة من قبيلة سليح ، فلما نزح الأزد الغساسنة إليهم غلبوهم في حرب ، فحلوا مكانهم . وفي المقابل كانت الحيرة التي تكونت بها مملكة المناذرة على رأسها المنذر بن النعمان ، فكانت حروب متكررة تقع بينهما حول القبائل العربية الضاربة على جانبي الطريق من دمشق إلى تدمر ، كل يدعي أنها خاضعة له ، وأنها تدفع له الجزية ، ولم ينته الصراع بينهما إلا بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة سنة 554 م .

يقول النابغة :

يوما حليمة كانا من قديمهم * وعينُ باغ فكان الأمر ما أتمرا

يا قوم إن ابن هند غيْر تاركِكم * فلا تكونوا لأدنى وقعة جزَرا (حليمة اسم مكان الموقعة) .

www.hamidpresscanalblog.com عبد الحميد حادوش

ومن أشعار العرب يمكن معرفة حدود ، وموقع ديار غسان (بين الجولان واليرموك) .

قال حسان مادحا جبلة بن الأدهم :

لمن الدار أقفرت بمعان * بين أعلى اليرموك فالخمان

فالقريات من بلاس فداريا * فسكاء فالقصور الدواني

وللغساسنة حضارة مزدهرة متأثرة بالحضارتين الساسانية والبزنطية ، فالجابية مركز لإمارتهم .

الزراعة :

اشتغلوا بالزراعة ، فاستغلوا مياه حوران التي تتدفق من أعلى الجبال ، وعدد حسان من بينها ثلاثين قرية . كما اهتموا بزراعة النخيل ، وأقاموا البساتين ، وإلى جانب ذلك ، اهتموا بالأبنية من قصور ، وأبراج ، وقناطر ، وعلماء الآثار وقفوا منها على قصر المشتى (ق 05 م) ، وقصر الطوية ، وأشعار حسان بن النعمان ، والنابغة الذبياني غنية في وصف الغساسنة .

قال حسان يرثي آل جفنة :

اسأل رسم الدار أم لم تسأل * بين الجوابي فالبضيع فحومل

فالمرج مرج الصفرين فجاسم * فديار سلمى درسا لم تحلل

إلى أن يقول :

يمشون في الحلل المضاعف نسجها * مشي الجمال إلى الجمال البزل

الضاربون الكبش بيرق بيضه * ضربا يطيح له بنان المفصل

والخالطون فقيرهم بغنيهم * والمنعمون على الضعيف المرمل

وقد وصف حسان مجلسا من مجالس جبلة الأيهم أمير الغساسنة :

" لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وأهداهن إليه إياس بن قبيضة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس فرش تحته الآس والياسمين ، وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر ، والمسك في صحاف الفضة والذهب ... ولا والله ما جلست معه يوما قط إلا خلع على ثيابه التي عليه ، وفي ذلك اليوم ..."

(من الأغاني للأصفهاني) .

المناذرة

كان تسكنها قبائل عربية هاجرت من اليمن على إثر تصدّع سدّ مأرب ، فبعد الحروب الأهلية في بلاد الفرس ، انتقلت من البحرين إلى مشارف العراق ، وتسمى في الأخبار هجرة التنوخيين . وأول من ملك الأنبار ، والحيرة مالك بن فهم . وتضعف الأخبار إلى جذيمة الأبرش . فقد روى الطبري ، والمسعودي ، وابن الكلبي أخبارا تفصيلية عنه .

فالحيرة كانت عاصمة عربية في الجاهلية ، كانت تزخر بتمعاهد العلم ومدارسه . ففي الحيرة تعلم المرقش الكبر ، وأخوه حرملة الكتابة على أحد لنصارى ، وكان بشر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل يأتي الحيرة فيتعلم الخط العربي .

وذكر ياقوت الحموي أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة قرية من قراها اسمها النقيرة . فالخط الحيري أساس الخط العربي ، اشتق من الخط الآرامي . وهذا الخط عرفه عرب الحجاز عن طريق عرب الحيرة قبل ظهور الإسلام بزمن قليل. (عبد الفتاح عبادة : الخط العربي) .

www.hamidpress.canalblog.com عبد الحميد حامدي

وملوك الحيرة كانوا يشجعون الشعراء بالعطايا والصلات . وقد وفد إليها من شعراء الجاهلية المرقش الأصغر ، وعمرو بن قميئة ، والمتلمس ، وطرفة العبد ، وعبيد بن الأبرص ، والمرقش الأكبر ، والمثقف العبدي ، والنابغة الذبياني ، ووليد بن ربيعة ، وحسان بن ثابت ، والنابغة الجعدي ، وعنترة العبسي ، وأعشى قيس ، وعمر بن كلثوم .(الشعر العربي في الحيرة ليوسف رزق) .

فالحيرة كانت ملتقى علميا لأدباء العرب في قصر الخورنق الذي لا زالت آثاره لحدّ الآن ، ويقيم مهرجانا أدبيا يتظاهر الجميع فيه بالجنس العربي .

الزراعة :

اشتغل أهل الحيرة بالزراعة والرعي لوقوع الحيرة في أرض السواد ، ووقوعها على نهر كافر التي جمعت الحياة البدوية ، وحياة الاستقرار ، فانتشرت مزارع النخيل ، والبساتين ، والجنان .

التجارة :

اشتغل أهلها بالتجارة ، ركبوا السفن فطافوا البحار إلى الهند ، والصين ، وإلى البحرين وعدن ، فكانت تتدفق على الحيرة الثروات. ففي كتاب الأغاني : " أقاموا القصور واستمتعوا بالحياة ، واستقدموا المغنين والمغنيات ، والصحاف من الذهب والفضة ، وناموا على فرش الحرير فوق أسرة مجللة بالكلل ، واتخذوا الطيوب ، والبخور تحرق في المجامر قبل النوم ." من كتاب الأغاني للأصفهاني .

قال عدي بن زيد :

ثانيات قطائف الحز والديـ باج فوق الخدور والأخماط

موقرات من اللحوم وفيها * لطف في البنان والأوساط

كما لبسوا مفاخر الثياب ، وشربوا الخمور .

تنفح بالمسك ذفاريهم * وعنبر يقطبه القاطب

والقز والكتان أثوابهم * لم يجب لهم الصوف جائب

والعز والملك لهم راهن * وقهوة ناجودها ساكب

الصناعة :

نشأت بها صناعات دقيقة :

- صناعة المنسوجات الحريرية والصوفية والكتانية . ويذكر في كتب الأخبار أسماء أزياء أهلها : الساج والطبلسان ، والدخدار ، البلهق ، الشرعبة ، السيراء .

والمعروف عن ملوك الحرة أنهم كانوا يخلعون على الشعراء أثوابا تعرف بأثواب الرضا ، وهي جباب أطواقها الذهب في قضيب الزّمرّد ، ومنها ما يسمى (المزّمل) .

- صناعة الأسلحة : كانوا ينتجون السهام والسيوف النّصال والرماح .
- كما كانت عندهم صناعة التحف المعدنية من العاج والحلي من الذهب والفضة والجواهر واليواقيت .

فن العمارة :

تطور عندهم فن العمارة لمحاذاتهم الفرس ، أخذوا منهم ، فطوروه حتى سمي بالبنيان الحيري ، والكمين ، وبقي معروفا في العصر الإسلامي ، واتبع المتوكل العباسي نفس النظام في بناء قصوره . واشتهرت الحيرة بالقصور منها قصر الخورنق (لا زالت آثاره إلى اليوم) ، وقصر السدير ، إلى جانب الأديرة والكنائس ، منها : دير بني مرينا ، وهند الصغرى ، وهند الكبرى وغيرها .

يقول امرؤ القيس :

عبد الحميد حامدي www.hamidpress.canalblog.com

ألا عين بكى لي سنينا * وبكى لي الملوك الذاهبينا

ملوك بني حجر بن عمرو * سباقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة أصيبوا * ولكن في ديار بني مرينا

الحياة الدينية :

عندهم هي : الوثنية ، أو الصائبة يعبدون الكواكب ، أو المجوس يعبدون النار ، فكان منهم النصارى واليهود . ومن أصنام الحيرة صنم يقال له (سبد) ، وكان منهم من يعبد العزّى .

ومن خلال ما سبق يطرح السؤال عما تضمنه الشعر الجاهلي عن نوعية الاقتصاديات ، وما يعكس على الأقل من مصطلحات ومفردات تترجم وجود إنتاج زراعي وصناعي متنوع .

عند امرؤ القيس :

استعمل كلمة المسك والقرنفل في ذكر الطّيب .

إذا قامتا تَضَوّع المِسْكُ منهما * نَسيمَ الصّبا جاءتْ بِرَيّا الْقَرَنْفُلِ

استعمل (مرطٍ مُرجّلِ) ، والمرط عند العرب كساء من خز من صوف . والمرجّل : المنقش بنقوش تشبه رحالَ الإبل .

خَرَجْتُ بِها أَمْشي تَجُرّ وَراءها * على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَجّلِ

وظّف كلمة (السّجَنْجل) وهي المرآة بلغة رومية عرّبتها العرب ، وقيل تطلق على الذهب والفضة .

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غَيْرُ مُفاضَةٍ * تَرائِبُها مَصْقولَةٌ كالْسّجَنْجَلِ

وفي وصف المرأة استعمل كلمة (راهب) تشبيها ، وهنا الدلالة المعرفية للعصر / ديانة .

تُضيء الظّلام بِالْعِشاءِ كَأنّها * مَنارَةُ مُمْسي راهِبٍ مُتَبَتّلِ

استعملكلمة (الْمِجْوَلِ) ، وهو نوع من الثوب تلبسه الجارية الصغيرة .

إلى مِثْلِها يَرْنو الْحَليمُ صَبابَةً * إذا ما اسْبَكَرّتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

وظّف تركيب (أمْراس كتان) أي : حبال مصنوعة من الكتان .

فيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأنّ نُجومَهُ * بِأمْراسِ كَتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

ووظف كلمة (الْحرث) ، وفي أصلها : الحرث أي إصلاح الأرض وإلقاء البذور ، أما في البيت فدالة بالاستعارة على الكسب .

كِلانا إذا ما نالَ شَيْئاً أفاتَهُ * وَمِنْ يَحْتَرِثُ حَرْثي وَحَرْثَكَ يَهْزَلِ

ونجد في قصيدة وصف الفرس أيضا طريقة سَحْق الطّيبِ وحبّ الحَنْظلِ .

كَأنّ على الْمِتْنَيْنِ مِنْهُ إذا انْحنى * مَداكُ عَروسٍ أو صَلابَةَ حَنْظَلِ

والمقصود بالصّلابة الحجر الأملس الذي يسحق عليه الطّيب وحبّ الحنظل .

وفي طريقة طهي اللّحم قال :

فَظَلّ طُهاةُ اللّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضَجٍ * صَفيفَ شِواءٍ أوْ قَديرٍ مُعَجّلِ

أي : أن منضجي اللحم صنفان ، صنف ينضجونه شواء مصفوفا على الحجارة في النار ، وصنف يطبخون اللحم في القدر .

أما طريقة الإنارة / للراهب / فاستعمل كلمة (السليط) ، وهو الزيت والذبالة ، أي الفتيلة .

يُضيء سَناهُ أوْ مَصابيحُ راهِبٍ * أمالَ السَّليطَ بِالذُّبالِ الْمُفَتّلِ

وفي الغيث والفيضان وأثره على القصور والأبنية قال :

وَتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ * ولا أَطُماً إلاّ مَشيداً بِجَنْدَلِ

عبد الحميد حادوش www.hamidpressanalysis.com

أما ما يفهم من البيت الموالي ، فإن الغيث يحول الصحراء ، فينبت بها الكلأ . كما أن التجارة خاصة تجارة الثياب فمعروفة عند التجار اليمنيين ، ويعرضونها في الأسواق .

وَأَلْقى بِصَحْراءَ الْغَبيطِ بِعاعَهُ * نُزولُ الْيَماني ذي الْعِيابِ الْمُجَمَّلِ

وعندهم الفلفل ويمزج بالشراب ، ويستنتج من قوله :

كَأَنَّ مَكاكي الْجواءِ غُدَيَّةً * صَبُحْنَ سُلافاً مِنْ رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

عند طرفة :

وعنده يمكن الوقوف على أنواع من السلع والصناعات . فظاهرة الوشم كانت معروفة وموجودة عندهم باليمامة ، ومن قوله :

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبَرْقَةِ ثَهْمَدِ * تَلوحُ كَباقي الْوَشْمِ في ظاهِرِ الْيَدِ

وفي أنواع الحِلي :

وَفي الْحَيِّ يَنْفُضُ الْمُرْدَ شاذِنٌ * مُظاهِرُ سَمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ

في الكُحْل فنساء العرب تنثر وتذر الأثْمد على الشفاه واللّثات ...

سَقَتْهُ إيّاةَ الشّمْسِ إلاّ لِثاتِه * أَسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمْ بِأَثْمَدِ

وفي وصْف الناقة يظهر تأثر العرب بالعمران الروماني ، واستعمالهم مواد بناء معينة في القناطر مثل الآجر ، والصاروج أي : القرمد .

كَقَنْطَرَةِ الرّوميّ أَقْسَمَ رَبُّها * لَتُكْتَنَفَنْ حتّى تُشادَ بِقَرْمَدِ

وفي وصف الناقة أيضا يشبه طول عنقها عندما ترفعه بذنب سفينة دجلة ، وهو نوع يسمى البوصي .

وَأَتْلَعَ نَهّاضٌ إذا صَعّدَتْ بِهِ * كَسُكّانِ بوصِيٍّ بِدَجْلَةَ تُصْعِدِ

سُكان : ذنب

ومن بيت آخر يتبيّن لنا أنه كانت باليمن صناعة الجلود ، ومنه نوع يسمى السّبْت : وهي جلود البقر المدبوغة بالقرْظ .

وَجَدٌ كَقِرْطاسِ الشّآميّ وَمَشْفَرٌ * كَسَبْتِ الْيَماني قَدُّهُ لَمْ يُجَرَّدِ

ومن البيت الموالي نعثر على نوع من الثوب المسمى بالسّحل ، وهو ثوب أبيض من الصوف أو غيره ترتديه الجارية وهي ترقص .

فَذالَكَ كَما ذالَتْ وَليدَةَ مَجْلِسٍ * تُرِي رَبّها أَذْيالَ سَحْلٍ مُمَدّدِ

أما كلمة الحانوت التي جمعها حوانيت ، فكان يقصد بها بيت الخمّار ، وتطورت معانيها مع العصور .

فَإِنْ تَبْغِني في حَلْقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَني * وَإِنْ تَقْتَنِصْني في الْحَوانيتِ تَصْطَدِ

والقطران أيضا كان معروفا ومستعملا ، تطلى بها البعير فيستلذّ ذلك فيذلّ له .

إلى أنْ تَحامَتْني الْعَشيرَةُ كُلُّها * وَأُفْرِدْتُ إفْرادَ الْبَعيرِ الْمُعَبَّدِ

وحتى لا يطول بنا تعداد أنواع السلع المتداولة ، والأدوات المستعملة بتعداد الأبيات الشعرية من قصائد الشعر الجاهلي ، فلا بأس من القول ما يلي :

1- إن الرأي القائل بأن الشعر الجاهلي سجل تاريخي للعرب رأي صائب لا يترك مجالا للشك .

2- الشعر الجاهلي لا يترجم الوضع الاقتصادي ترجمة حقيقة ، بل يمكن اعتباره أداة مساعدة لاستجلاء بعض السمات العامة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، ولا يمكن أن ننتظر أكثر من الشعر وإلا فقد جزءا من وظيفته الأساسية .

وخلاصة القول أن العصر الجاهلي بكل مكوناته – والشعر خاصة – لا زال يحتاج إلى بحوث جدية بعيدة عن السرد التاريخي ، والتحليل السطحي لاستيفاء حقه ، وهنا تبقى المناهج الحديثة في الدراسات الأدبية السند والمعول لتوضيح ما لم يتوصل إليه من

www.hamidpresscanalblog.com عبد الحميد حادوش

سبقوا إلى هذا الميدان ، والاجتهاد على استجلاء كل المفاهيم والرؤى باستقراء النصوص ، والوقوف على كل حيثيات ومعطيات العصر .

عبد الحميد حادوش
www.hamidpress.canalblog.com

خريطة تقريبية تعكس محتوى البحث